لهُ ابواب الهداية بما يُعرَض عليهِ من المؤثرات التي يستفيد منها العلم بما يكون نافعًا او ضارًّا فيألف النافع وينفر من الضار ولا تزال القوى العقلية تنمي بالممارسة والاكتساب طورًا فطورًا والاستعداد الطبيعي يمهد امامها سُبُل الارتقاء حتى تبلغ الشأوَ العجيب . ومن الغريب ان الانسان في بدء امرهِ ينسى كثيرًا من الحوادث والآثار التي ترد عليهِ فلا يحفظ منها الّا ما كان مفيدًا لهُ في امر تنازع البقاء ولذلك كانت الذاكرة ضعيفة في اول العمر

ومعلومٌ ان هذه القوى تكون في الحيوانات غريزية في اصل فطرتها فالفراخ مثلاً تلتقط الحب حالما تنقف وأجراء الكلاب تمشي عند ما تولد والمهر يستوي على قوائمهِ حينئذٍ والقرد يتسلق الاشجار بخفة منذ ولادتهِ . ولكن ذلك فيها يقف عند درجة القوَّة البهيمية فلا يتعداها الى القوى السامية المميزة للانسان وهي التي تدخل تحت الارادة والعقل و تأخذ في النماء والارتقاء منذ اول اطوار حياتهِ على ما تقدم بيانهُ حتى تبلغ فيهِ الى درجة الكمال

المصريون

(تابع لما قبل)

والقبط من حيث المذهب ينقسمون اليوم الى ثلاث فِرَق ارثوذكس وانجيليين وكاثوليك والارثوذكس هم اقدمهم عهدًا واكثرهم عددًا[1] واشدُّهم

---

١ زعم بعضهم ان القبط يبلغون الان ٧٠٠,٠٠٠ فاكثر ولم نقف على ما يثبت هذا القول فى احصاء يعتمد عليه والذى تحققناه على ما فى المؤلفات الموثوق بها انهم لا يزيدون على ١٥٠,٠٠٠ كما تقدم لنا ذكره (راجع موسوعات العلوم الفرنساوية الكبيرة فى لفظة « كنيسة القبط » صفحة ٦٢٦ من المجلد ١٥) الا ان فلاماريون ذكر فى معجمه الجارى الان طبعه انهم يبلغون ١٦٠,٠٠٠ وعلى كل حال فالحقيقة

اعتصاماً بالعقائد المسيحية على ما كانت عليهِ الى المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١ من المبالغة في التورُّع والقنوت وتطويل العبادات . وقد نبغ في الكنيسة الاسكندرية التي ينتسب اليها بطاركتهم رجالٌ لم تزل آثارهم ومؤلفاتهم تشهد بما كان لهم من الفضل والحكمة ولا سيما في القرن الثالث الى آخر الخامس ولا غرو فان مدرسة الاسكندرية كانت نبراس الفلسفة المشرقية الذي استضاءوا بنورهِ وانارُوا العالم الى ان خبا بهبوب ريح المماحكات في العقائد المذهبية وما انضمَّ الى ذلك من اسباب المشاحّات والمنافسات بين رجال الدين ولا سيما بعد ان رُفِع اسقف بزنطية الى مقام بطرك مسكوني بانتقال كرسي القياصرة اليها حتى آل الحال الى الشقاق والانقسام فاستقلت البطركية الاسكندرية ولبثت محافظة على لقب الكنيسة المرقسية وجعلت كرسيها القاهرة. وكانت الحبشة تابعة لها فكان البطرك ينصب رئيس كهنتها الذي يسمونهُ « ابونا » وبقي الامر على ذلك الى القرن السادس عشر. ومن ذلك يُعلَم ان الرابطة الدينية بين الحبشة والقبط موثَّقة العُرَى لم يُضعِف استحكامها الا انحطاط رجال الدين من هذه الطائفة فانهم لو اقتفوا آثار الصلحاء من اسلافهم وحافظوا على تقاليدهم القديمة لكانت الأُمتان أُمَّةً واحدة لايصدُّها عن الجدّ في سبيل الحضارة الا تفرق الكلمة وعدم اكتراث الرؤساء بتحصيل العلوم التي يتوقف عليها نجاح الأُمّة وارتقاء شأنها

وقد نشط فريقٌ من نخبة رجال هذه الطائفة وأفاضلها لتدارُك تلك الحال والنهوض بالأُمّة الى مجاراة غيرها من الأُمم السائرة في سبيل التمدُّن العصريّ فأنشأوا جمعية في القاهرة سموها بالجمعية التوفيقية وجعلوا لها فروعاً في

لا يقطع بها الا بعد ظهور الاحصاء الذى شرعت فيه الحكومة ولعل موعدنا به قريب ان شاء الله

سائر انحاء القطر وانحاز اليها المتأدبون وارباب الحميّة والالمعيّة من كل صوب مستمسكين بعروة الاتحاد الوثقى متوسلين الى اقامة الأوَد وتعميم التهذيب بانشاء المدارس والالحاح في وجوب تعليم رجال الدين وتثقيف عقول الإناث. وعلى كون هذه اول خطوةٍ لهم في هذا السبيل فمع ما شوهد فيهم من المواظبة والثبات في طلب التقدم ومع ما هو متوفرٌ لهم من الذرائع المبلّغة الى نيل تلك الاماني على اتمّ وجوهها فالمأمول انهم لا يمضي عليهم طويل زمنٍ حتى يصلوا الى المنزلة التي يتقاضاهم العصر بلوغها ويسرّهم ان يصفهم بها الواصفون

وأمّا الفلاحون ويقال لهم العرب وانما هم في الحقيقة اخلاط من القبط الذين اسلموا والعرب الذين استولوا على البلاد منذ ايام عمرو بن العاص فسحناتهم مصرية وان كانت لغتهم عربية وآدابهم اسلامية. ويكفي لثبوت ذلك مقابلتهم بصور قدماء المصريين فيُرَى ان شكل التحف غير مستدير كما هو في العرب ولكنهُ مستطيل قليلاً كما في المومياء والجبهة غير عريضة والشخوص الوجهي كما هو في القبط وكذلك العينان فهما نجلاوان والفم فهو باسم غليظ الشفتين والمنكبان عريضان والاطراف مسطحة مرتبطة بقوائم نحيفة كما هو الحال في التماثيل القديمة. ومدلول ذلك ان اختلاط العرب بالقبط كان كاختلاط اليونان والرومان بهم ضعيف التأثير ومثل ذلك اختلاط الكرد والترك وغيرهم بهم في الازمنة المتأخرة كأنّ العنصر الاصليّ اكثر ملاءمة لأثر الأحداث الطبيعية فهو يتفق مع تأثير الاقليم في اهتضام العناصر الاخرى متغلباً عليها على تراخي السنين ولذلك كان الفرق بين القبط والفلاحين مقصورًا على الحالة الاجتماعية واكثرهُ صادرٌ عن اختلاف الدين. اما من حيث الخصائص الطبيعية فلا فرق بينهم فيها يُعتدُّ بهِ مع ما عرض على الفلاحين من اسباب الاختلاط وثبوت القبط مستقلين

بخصائصهم لانحصارهم في شؤونهم الطائفية واستمرارهم على عوائدهم الاصلية . ولا عبرة باللون في التميز بين سُلالة واخرى ما لم يكن مضافاً الى غيره من الخصائص الطبيعية اللازمة غير العارضة بسبب امر خارجي فلون الفلاحين يزداد سمرةً بمقدار ما يقتربون الى الجنوب وهو يكون في الاسكندرانيين اغثر وفي سكان مصر الوسطى اسمر وفي اهل الصعيد آدم وفي المنتشرين على حدود نوبيا اسمر . ومعلوم ان اللون يتوقف على نوعية المعيشة فالذين يصرفون حياتهم بالشغل في حر النهار تحت اشعة الشمس يكون لونهم ادكن بخلاف الذين يعيشون بالرخاء في ظلال البيوت والاسواق والمساجد فلونهم يكون اصفى وانقى وما احسن ما قال المتنبي

تسوّد الشمس منا بيض اوجهنا ، ولا تسوّد بيض العُذر واللِمَمِ
وكان حالهما في الحكم واحدةً لو احتكمنا من الدنيا الى حَكَمِ

ونساء الفلاّحين رشيقات القوام عليهنَّ لمحة من الجمال ولكن العواطف قلما يظهر تأثيرها على ملامحهنَّ مع دَعَج عيونهنَّ . على ان جمالهنَّ لا يثبت الاّ قليلاً فهنَّ يُنحنَ بسرعة ويبلغنَ في الثانية عشرة من عمرهنَّ ويلدنَ كثيرًا فاذا بلغنَ العشرين ذوت نضارتهنَّ وجفَّ ماء الحسن من وجوههنَّ وتهدمت صدورهنَّ حتى يخيَّل ان عمرهنَّ حينئذٍ خمسٌ واربعون ولذلك فكثيرًا ما يتعمدنَ التمويه وما يُصلِح العطار ما افسد الدهر . ومن الغريب ان اطفالهنَّ يُخلَقون نحافًا هزيل كأنهم لم يولدوا ليعيشوا وتظهر عليهم في الطَور الاول من اطوار الحياة علامات الكُساح من ضعف البنية واسترخاء البطن وكبره فكثيرًا ما يهلكون صغارًا لعدم الاعتناء بهم الا الذين أُتيح لهم الفوز في مغالبة الامراض فان احوالهم تستقيم في طور البلوغ فتنمي اطرافهم وتتبدل ملامحهم فتبدو عليها

اماثر القوّة والرجولية في الفتيان واللطف والاعتدال في الفتيات

ومعلوم ان الامة المصرية لهذا العهد يتألف معظمها من الفلاحين وعددهم

غير معروف بالضبط والتدقيق لانهُ لم يوجد حتى الآن احصآء يصحّ الاعتماد عليهِ الاّ الاحصآء الذي أُجري سنة ١٨٨٢ وقد بلغ مجمل سكان القطر بموجبهِ ٦,٨١٨,٠٠٠ واقلُّ ما يقال فيه انهُ صار متقادم العهد ولاسيما بعد طروء الاحداث المهمة في القطر منذ ذلك التاريخ فضلاً عما وجد فيهِ حينئذٍ من الخلل اذ ثبت عند جمع الرديف في احدى المديريات ان ٤٢,٣٠٧ اشخاص لم يقيدوا في سجلّات الولادة وان ادارة الصحة في مديرية

القرية تحرّت في احدى السنين سجلّ المواليد فوجدت ان ٨٠٠٠ طفل لم تقيد اسماؤهم فيهِ فما ادرى الحكومة المصرية مع حرصها على الاصلاح وايثارها حسن النظام والضبط باجراء احصاء[1] يتكفل ببيان الحقيقة الى يترتب عليهِ من الفوائد. والحاصل ان الاحصاء المذكور يؤخذ بهِ على علاّتهِ بوجه التقريب واذا أُخذت مساحة الارض التي يشغلها السكان وقُسمت عليهم حصل لكل ١٧٨ نفساً كيلومتر مربع وذلك ما لم يبلغهُ محل في جميع ممالك اوربا

والمصريون من حيث المدنية اخوان في الدين متساوون في الحقوق يأتمرون باوامر الشريعة الاسلامية التي هي شريعة البلاد وينتهون بنواهيها ويحترمون ائمتهم وعلماءهم ويحفظون القرآن والسُنّة وعندهم العصبية ولكنهم ليسوا بمتعصبين كغيرهم ممن اعماهم الجهل واصمتهم الغباوة لطفاء الحاضرة على دماثة اخلاق ولين عريكة كرام في ضيافاتهم سريعو التودد اذكياء الخاطر يضرب المثل بهم في البداهة وسرعة الجواب وفي طباعهم الميل الى الدعة والسكون والقناعة والاعراض عن النظر في العواقب والاستسلام لحكم القضاء والقدر على نحو ما قال الشاعر

جرى قلم القضاء بما يكونُ ... فسيّان التحرُّكُ والسكونُ

جنونٌ منكَ ان تسعى لرزقٍ ... ويُرزَق في غشاوتهِ الجنينُ

وقد اكثر المتكلمون في الطبائع من الكلام على الطلاق وتعدد الزوجات فاثبتوا انهما من دواعي ضعف الشرقيين حسًّا ومعنى واطالوا في امتهان الشرقيين نساءهم ومنعهنّ من التعليم والتهذيب ومعاملتهنّ كالحيوانات على زعمهم الى غير

---

١ بلغنا بعد جمع هذه المقالة ان الحكومة قد شرعت في احصاء سكان القطر فعسى ان يكون هذا الاحصاء الجديد بالغاً غايته من الدقة والضبط

ذلك مما لا يصحّ اطلاقهُ ولا يخلو من المبالغة. على ان كثيرين من افاضل مصر وسوريا لا يؤثرون كثرة الزوجات على الزوجة الواحدة ويكرهون الطلاق ويعاملون نساءهم بالحسنى ولا يمنعون بناتهم وسائل العلم والتهذيب

وقد غلب على اصحاب الوجاهة والثروة من المصريين تحدّي العوائد الغربية في الملبس والمآكل والمفرش والزيارة والعيادة وتعليم الاولاد حتى نبذوا لغتهم العربية واهملوها فما افادوا ولا استفادوا الا قليلاً. ومن العجب ان فريقاً منهم مع اعتصامهم بعروة الدين الاسلامي لا يقرأون كتب الشرع العربي ولكنهم يتعلمون ما سمي بعلم الحقوق باللغة الفرنسوية طمعاً في الحصول على الشهادة المدرسية التي يقتضيها قانون الحكومة فلا يُسمح بدونها لاجير كان ان يُقبَل في المحاكم وكيلاً عن المدعي او المدعى عليهِ فلو احسنت الحكومة ترتيب المدارس على وجهٍ يكفل للطلبة بالنجاح المقصود لكانت في غنى عن خسارة رجالها الذين ربّتهم لينتفع غيرها بهم فان الذي ينشأ في فرنسا مثلاً يكون فرنسويًّا والذي ينشأ في المانيا يكون المانيًّا والذي ينشأ في انكلترا يكون انكليزيًّا ومصلحة الوطن لا تقوم بشيء من هذا. واعجب من ذلك ان ادارة المعارف موكولة الى من لا يحسن معرفة لغة هذا القطر الذي ما برح الى هذا العهد حيّ اللغة العربية الوحيد ومنتجع آمال مريديها من مفيد ومستفيد ولنا على ذلك كلام نرجئهُ الافاضة فيهِ الى غير هذا الموضع. وقد رأينا ان نشوء هذه العوائد واردٌ من قبيل نفوذ الاوربيين وتدخلهم في المصالح الادارية والسياسية. واما رجال الدين والتجار والعامة فلم يزالوا محافظين على عوائدهم القديمة عملاً بالشريعة والتقليد وزيهم معروف والعلماء يمتازون بالعمائم البيض والاشراف بالعمائم الخضر. واصحاب المناصب والموظفون في الحكومة كلهم يتزيون بالزيّ الافرنجي ولكنهُ

يترتب عليهم ان يلبسوا الطربوش ولو كانوا من الاجانب وفي الرسميات ان يتزيّوا بما يُعرَف بالاستنبولينا اقتداءً بالحضرة الخديوية الفخيمة الحريصة على المحافظة على الشعار العثماني

ومن عوائد المصريين واخلاقهم انهم ميّالون الى اللهو والطرب يؤثرون الغناء وسماع الالحان الشجية الرفيعة النغم على سماع الموسيقى الاوربية ولهم في هذا الفن تصرف واسع فربما ابتكر المطرب صوتاً يُحفَظ عنهُ فينتشر في البلاد ويعم استعمالهُ فيشدو بهِ الرائح والغادي والملاّح والحادي فكأن هذا الميل فيهم طبيعي يظهر في سكناتهم لتنبيه عواطفهم وفي حركاتهم للحث على العمل فتراهم في الموالد والاعياد والاعراس والولائم والملاهي ومحالّ القهوة يتجمعون زرافات زرافات لسماع الغناء على نغم الاوتار وفي شهر الصوم ينشدون الذكر حتى ان الباعين المتنقلين يطوفون الاسواق والشوارع وهم ينادون على الايقاع للاقبال على الشراء والفعلة تحت الاحمال الثقيلة يتراسلون التلحين كانهم يخففون بهِ وقرًا على كواهلهم . ومنها انهم مولعون بقهوة البن الا أن بعضهم يستعمل الحشيش تدخيناً وهو شرّ المسكرات لانهُ يؤدي الى الخمول وضعف العقل وموت الوجدان وبالتالي الى انحطاط الحالة المدنية

وقد أطلنا في هذا الباب فنقف منهُ عند هذا القدر خشية الملال ولعلنا نعود الى توفيتهِ حقَّهُ في فرصةٍ اخرى ان شاء الله تعالى